

# الدين والفلسفة

مصادرها ونشأتها وعوامل التفرقة بينهما

لمحمد يوسف موسى

الإنسان طليعة بطبعه ، يودّ دائماً أن يعرف نفسه وما يحيط به ، وأن يتعرف على ما يراه من حوادث وظواهر . وإعبارة أخرى يود لو استكشف الغيب ، فعرف العالم والقوة التي أوجدته ، والنظام الذي يسير عليه ، والاصل الذي كان منه والغاية التي ينتهي إليها . ولقد لجأ أول الأمر — بعد أن تقطعت السبل بينه وبين النبرات الأولى — الى فروض مختلفة كانت المعين للمساير الدينية والفلسفية ، ثم وجد بعد هذا في التفلسفات الصحيحة والأديان الحققة ما أَرْضَى نفسه الفكرية ووطئ إيمانه ، وما أناله حلول أكثر المسائل والمشاكل التي أثارها ما فطر عليه من طليعة

ولعلّ التفكير الديني كان أول لون من ألوان التفكير الإنساني ، لأن الإيمان بشيء طبيعي أو فوق الطبيعي يكاد يكون مركزاً في فطرة الإنسان ، فيضيف إليها التصرف في الكون واهداف ما يشاهد من ظواهر ، ويمهدا ممثلة فيما يرى من جاد أو حيوان أو اجرام سماوية ، ويضع لعبادتها ما يهديه اليه فكره من طقوس وتواريخ . ثم كان أن تطور الإنسان وتقدم التفكير ، فتناول ما كونه في الطور الأول من عقيدة وتشريع فشرع بفلسفه ، ثم تقدم خطوة أخرى فتجاوز الإنسان بالنظر الفلسفي حدود العقيدة الى الكون كله ومصدره ونشأته وما يتناوبه من كون وفناء ، غير متقيد في تنكيره بما ورث من دين وتقاليد ، فكان من هذا ما عرفه بالفلسفة الحقيقية بهذا الاسم . ثم وجد الإنسان بعد ذلك كثيراً مما يتطلع الى معرفته فيما جاء به الرسل من ديانات صحيحة عن الله بعد أن بلغوا الذي أرسلوا به فداع بين الناس

وكان حريصاً بالتفكير الفلسفي ، وقد نشأ أول ما نشأ في حدود العقيدة والدين ، أن يظلم متعاوناً مع الدين فيما يروم المرء ويمثل جهداً له : من فهم العالم وحقائق الموجودات ، ومن الوصول بالإنسان الى السعادة التي يرجوها من وراء العلم الحق — الذي تكمن له النفس — بالعالم أرضه وسبيله . كان هذا حريصاً بالفلسفة ، ولكن لعوامل مختلفة سجل تاريخ التفكير ما كان

من وفاق أحياناً وخصومة أحياناً بين الدين والفلسفة كما سجل آثار ذلك في التفكير الإنساني العام. غير أنه قبل الكلام في هذا يرى من الخير أن نحدد ما يزيد بكلمة «دين» ، وكلمة «فلسفة» ، ليكون الكلام محدداً والطريق مأموناً

١ — للدين معانٍ متعددة ، بعضها يرجع الى اللغة ؛ وبعضها يرجع الى الشرع . ففي لسان العرب أن الدين هو الجزاء والطاعة والعادة والاسلام ، ويقول الأصفهاني : « والدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشرعة والدين كالملة <sup>(١)</sup> » ، والفرق بينها في رأيه أن الدين يضاف الى الله والى النبي ، بينما الملة لا تضاف الا للنبي الذي تسند اليه ولا تكاد توجد مضافة الى الله ، فلا يقال ملة الله كما يقال دين الله ويقال ملة ابراهيم مثلاً كما جاء في القرآن <sup>(٢)</sup> ويرى الشهرستاني <sup>(٣)</sup> ان الدين الطاعة والانقياد ، وأنه قد يرد بمعنى الجزاء والحساب ، وان الملة والشرعة يتفرقان عن اجتماع الناس وحاجتهم في سبيل خيرهم للتمانع والتعاون . والجرجاني يرى أن الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار ، فالشرعة من حيث أنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث أنها تجمع تسمى ملة ، وقيل بينهما فرق وهو ان الدين منسوب الى الله والملة منسوبة الى الرسول <sup>(٤)</sup> . وبعد هؤلاء جميعاً نجد الشهابي يقول ان الدين وضع إلهي صائغ لتدوي العقول باختيارهم اليه الى الصلاح في المال والنقلاخ في المال ، ويطلق على ملة كل نبي ، وقد يخص بالاسلام ، ويضاف الى الله لصدوره منه والى النبي لظهوره على يديه والى الامة لتدينهم به وانقيادهم له

\*\*\*

هذا ، والدين ، اذا لوحظ من الناحية اللغوية وحدها ، يطلق على الدين الحق والدين الباطل أيضاً ما عدا ما لا يقدر بالبحث والجزاء ، والقرآن يقر هذا حين سمي ما كان عليه العرب ديناً اذ يقول «لكم دينكم ولي دين» . لكن الدين صار له معنى شرعي خاص لما اشترط فيه أن يكون وحياً من الله لهداية الناس بما يحجب به من عقائد وأصول عامة لا يتطرق اليها النسخ ولا يختلف فيها الانبياء ، ويدل لذلك قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، فان المعنى كما ذكر المنصورون : أوصيناك يا محمد وسائر الانبياء ديناً واحداً

ذلك هو معنى الدين في اللغة والشرع ، منه نتيقن أن الدين يقرب على الايمان بقوة علميا تحب طاعتها ونجازي المرء على ما يعمل ، ويعد الانسان مجلول لكثير من المشاكل التي سبق

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٧٥ (٢) المدرسه ص ٤٨٨ (٣) المال والنحل ١ : ٤٦

(٤) كتاب الترمذيات

أن وقف أمامها ففكره وفرض فيها القروض . فلنأخذ الآن في بيان معنى كلمة فلسفة ، لئلا  
ما قد يكون من صلة بين الدين وبينها في نشأتها وغايتها

٢ - والفلسفة كذلك اختلفت الآراء في تحديدها وبيان موضوعها ، فكان لنا من  
هذا تعاريف متعددة لها ، ويكفي أن نذكر من بين هذه التعاريف ما ذهب إليه أساطين  
الفلسفة الاغريقية وبعض الفلاسفة والمفكرين في الاسلام

١ - يرى سقراط أن الفلسفة هي حب الحكمة والسعي وراءها ، وهي في رأيه تكاد  
تتحصر في معرفة الانسان نفسه

ب - ويرى تلميذه الأشهر أفلاطون انها - بمعناها الاخص - معرفة عالم النشأ ، أي  
الاشياء الثابتة وجوامعها الدائمة

ج - ويرى أرسطو أن الفلسفة - بمعناها الاخص أيضاً - علم ما وراء الطبيعة ،  
أي تعرف الملة الأولى للاشياء او تعرف المبدأ الأول

د - والجوزرزمي يرى انها علم حقائق الاشياء ، في الطبيعة أو فيما بعد الطبيعة أو  
الرياضيات ، والعمل بما هو أصح (١)

هـ - ويذهب ابن سينا الى أن الحكمة استكمال النفس الانسانية بتصور الامور  
والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الانسانية (٢) وبمثل هذا التعاريف  
وابن رشد

و - ويرى الشهرستاني ان الحكمة تطلب ليحل بها أو لتعلم فقط ، فهي لهذا  
علمية وعملية ، فالقسم العملي يهل الخير ، والقسم العلمي ، علم الحق (٣)

ز - وأخيراً يذكر طاش كبرى زاده ان الفلسفة نظرية وعملية . والأول تشل العلم  
الالهي أو علم ما بعد الطبيعة والعلم الرياضي والعلم الطبيعي ، وأن العلم الالهي -  
وهو العلم الأعلى أو الفلسفة الأولى - هو البحث عن حقائق الموجودات من حيث هي  
موجودات (٤)

ومن هذه التعاريف جميعها نستطيع أن نقرر ان الفلسفة هي التفكير الحر في الاله  
والكون والانسان . أو نظر العقل الحر الذي يراد به معرفة حقائق الموجودات والمعلومات  
وعلمها ، في العالم الاكبر المحيط بالانسان ، والاصغر الذي هو الانسان ، وفي المبدأ الأول  
لهذا كله . أو هي التفكير الحر لكشف المجهول وإسماع الانسان

(١) مفتاح العلوم ص ١٣١ (٢) تع رء الخ ص ٢

(٣) الملل والنحل ٢ : ١٥٦ - ١٥٧ (٤) مفتاح السعادة ١ : ٢٥٥

والفلسفة — كما أشرنا من قبل — نشأت في حدود العقيدة والدين ومن ظاهرها إبعاد الانسان، ومن ثم التمس الأمر على بعض التفكير في حمل الغرض منها هو غرض الدين. هذا ابن حزم يصرح بأن الغرض من الفلسفة هو إصلاح النفس، وأن هذا نفسه هو الغرض من الشريعة، وأنه لا خلاف في هذا بين أحد من رجال الفلسفة وأحد من رجال الشريعة<sup>(١)</sup> وهذا ما لا يستطيع الناخذت تلبية له، اللهم إلا أن قصرنا الفلسفة على انقسام العمل منها، أو قلنا أن الغاية من القسم النظري تسكين النفس الطلعة القلقة وإذهاب حيرتها بالمعرفة والعلم، فيكون ذلك عوناً لها على السعادة!

\*\*\*

ومها يمكن من التفرق بين الدين والفلسفة، فإن ابن سينا يربط بينهما برباط دقيق متين يجعل — في رأيه — فضلاً واضحاً للدين على الفلسفة<sup>(٢)</sup>، إذ يرى أن مبدأ الفلسفة العملية مستفاد من جهة الشريعة الالهية، وأن مبادئ الفلسفة النظرية مستفادة من أرباب الاله الالهية ثم لعمل القوة العقلية على تحصيلها بالكمال، وأن من أوتي استكمال نفسه بهاتين الحكمتين فقد أوتي خيراً كثيراً<sup>(٣)</sup> ومعنى هذا أن المرء لا غنى له في سبيل سعاده عن الدين والفلسفة معاً، وإن كان الأول فضل على الاخرى

لكن هذه النتيجة التي نلزم الشيخ الرئيس لا ترضي طبعاً الكثير من رجال الدين. ونعتقد أن طاش كبرى زاده كان يري من قوسهم إذ يقرر أن الدين جاء بالعدل حقيقة، وأما الذي استحسنه عقول الحكماء — يعني الحكمة العملية التي القعد منها إصلاح النفس والنزول والامة — فهو السياسة الاصلاحية التي يبنى بها نظام العالم وإن لم تصلح بها أمور الآخرة، وأن الدين يقولون لا بد للشرع من انضمام للسياسة جملة وهوام لأن الشرع لا يحتاج الى غيره، وكيف يحتاج الشرع الى السياسة والانياء تكل بهم أمور الدارين وما يصلح به البشر علياً وعملياً<sup>(٤)</sup> وهذا الرأي، أعني حاجة الدين أو عدم حاجته للفلسفة، من ائزازان الخطيرة، ومع ذلك فنجد فيه كلاماً يأتي في محله من هذا البحث بفضل الله وتوفيقه والآن، وقد وضع معنى الدين والفلسفة ونشأتهما وموضوع كل منهما والصلة الطبيعية بينهما، فننتقل الى الحديث عن أهم العوامل التي تفرقت بينهما أو بين رجالها، وجعلت

(١) الفصل ١ ص: ١٩٤ - ٢١. لعله أراد بهذا التفرق بين الوحي والفعل على ما سيظهر، يانه

(٢) نبع رسائل ص ٢ - ٣ (٤). مفتاح السعادة ص ٣٣٦

منها معسكرين لكل منهما أشباع يترصب بعضهم ببعض الدوائر ، بينما كان من الواجب أن يسير كل منهما مع الآخر جنباً إلى جنب ، ما دام هما معاً المبعين للدين يرجع اليهما الانسان في كنف المجهول ، وما دام من غرضهما جعل الانسان خيراً فضلاً سعيداً .  
هذه العرائل منها ما يرجع الى السياسة ، ومنها ما يرجع الى التنازع على عروض هذه الحياة ، ومنها ما يرجع الى طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة . وصفتين لمن سباق الحديث فيما يأتي ما يتصل بالفريين : الأول والثاني ، فلنجعل الكلام الآن في الضرب الأخير وحده ، معتمدين على التحليل والتأمل الذاتي

\*\*\*

تكاد الذباية من الدين تتحضر في مداية الناس للخير والسعادة : لا في تفهيم حقائق الموجودات وما يعترى العالم من كون ونساق ونحو هذا مما هو غاية الفلاسفة النظرية . فاذا جأه الفلاسفة وحاولوا الكشف عن ذلك عدّم بعض رجال الدين جماعة تحاول الوصول الى ما استأثر الله بعلمه ، ورواوا فيما يحاولون ما لا ينفق وإجلال الله الذي يعلم وحده كل شيء

ثم نجد الدين يوحى الى المندين أنه ليس بشيء في جانب الله وأنه عاجز كل العجز عن فهم نفسه ، بله العالم والسموات وما فيهن وما بينهن ، فاذا أتى الفيلسوف يعلن مقدرة العقل على التعرف هذا كله رماه رجل الدين بالحق والفر والنظاير الى ما ليس في طوقه ، ويرودون في هذا قوله تعالى : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً »

وأخيراً ، رأى رجال الدين تحبب الفلاسفة كثيراً وترديهم في الخطأ والضلال ، فكيف اذا يؤمنون لهم فيما يذهبون اليه مما لو كان في معرفته خيراً للانسان ليئنه الله ورسله ، أو لم يتحسّل بيننا وبين البحث فيه ، وكان من الخير — لهذا — في رأيهم عجاذة الفلاسفة سداً للطريق الخطأ فيه في رأيهم أكثر من الاصابة .

ولعل سقراط نظر الى هذا كله أو بعضه حين رأى نفسه ان يكون فيلسوفاً يعني بالمسائل الانسانية لا بعلم الطبيعة ، وحين اعتبر علم الطبيعة علماً باطلاً مجدباً وفيه اهانة للالهة ان البحث في علم الطبيعة — فيما يرى — بحث باطل وعيب ، لان الطبيعيين لم ينتقوا على مسألة من مسائله ، والاختلاف والتناقض أماراة الجهل . وهو مجدب لا خير يرجى منه ، لان هؤلاء الناعتيين به هل يعتقدون أنهم ان عرفوا ما عليه العالم من قانون — به

تحدث طوامره — يستطيعون أن يحدثوا الرياح والمياه والفصول! والبحث في هذا العلم فيه اهانة للآلهة، لأن الآلهة منحنا القدرة على معرفة الأشياء الانسانية بالتفكير، واستأثرت بمعرفة الأشياء الالهية مثل تكوين العالم وما يتصل بهذا من المسائل الطبيعية، وعلماء الطبيعة — حينما بحثوا في هذا الضرب من المسائل وأهلوا الضرب الأول — قد قبلوا النظام الالهي باحتقارهم ما مسحوا بالقدرة على معرفته وتطلبهم الى معرفة ما احتفظ به الالهة لأنفسهم (١)

وأخيراً، لقد ثبت من تاريخ التفكير الفلسفي أن الفلسفة حاولت أن تجعل من نفسها ديناً يفتقر الإنسان عن الأديان المختلفة، كما نعلم من الفلسفة الرواقية والافلاطونية الحديثة. وكذلك نعلم أن بعض الفلاسفة «كافلاطون» عونا بنقد الدين الذي كان سائداً في أيامهم؛ وأن آخرين كانوا الصفاء كانوا يزعمون أن الدين الاسلامي ليس كاملاً بنفسه، وإنما الكمال يكون متى انتظم الدين والفلسفة معاً وأعاد كل منهما من الآخر. وكفى بهذا وذاك في أن يضر رجال الدين للفلسفة ورجالها للعداء.



هذه هي العوامل، الراجعة الى طبيعة الدين والفلسفة، التي قد تدفع الى الخصومة بينهما. طبيعة الدين الذي مصدره القلب الذي يفتتح للعقيدة بالهام قوة عليا وإن لم يتم على ما يعتقد دليل في رأيه، وطبيعة الفلسفة التي أداها العقل الذي يستقرىء ويحلل وينزل ثم يمتد غير متعبد باديء الامر بعقيدة أو رأي لم يتم عليه دليل. وبإضافة العوامل الأخرى، التي سبق أن أشرنا الى مصدرها والتي سيحجيء لها ذكر في محالها، كانت الخصومة التي سجلها التاريخ. هذه الخصومة كانت تشتد وتخف، وتمتلئ وتفسر تبعاً لتعصب رجال الحكم أو تسامحهم، ولقوة رجال الدين أو ضعفهم، واتغير هذا وذاك من العوامل التي كان لها أثرها في تلك الأيام.

وفي بيان هذا النضال بين الدين والفلسفة، أي بين هاتين القوتين اللتين تحددان للأهم أهدافها وظايفها، نوسع القول لو وجدنا مجالاً، ولذلك نكتفي في عرضه — لدى المسلمين — وفي بيان آثاره بإشارات أو لمحات فيها غناء لمن ألمَّ بطرف من تاريخنا الفكري، وسنتكلم أولاً عما كان من ذلك في المشرق، ثم عما كان منه في المغرب تالياً « يتبع »

(١) دراسات في تاريخ الفلسفة الامتداد «أبيل بوترو» J. BOUTROU. دار النشر من ٢٢ — ٢٣